

اوراق من ملف المهدي بن بركة

صديقي يوسف

سندخل عمدة الحانات
ندخل عمدة الاكواخ
ندخل عمدة التكنات
ندخل عمدة الوطن

آه ... بن بركة الجالس اليوم بين الرصيف وبين الرصافة ، في مشرب للمغاربة اللاجئين : انتظرتك يومين ، اتبعني الانتظار ، فبادرت حيطتي المستمرة ، حتى سألت الصحافي ذا اللحية الفوضوية ، لكنه لم يجيبني

قال لي مخبر : « عناد من رحلة في الضواحي » ، اذن كنت في حارة بالحزام الشيوعي BELLEVILLE حيث الافارقة القادمون من المدن المتسولة النور ، او من مساجد تلك القرى وهي تنهار في ليلاها المظلمين .

انه الشخص ذو المعطف المطري ... الذي كنت فاجاه مرة ... يدخل المشرب الان ... يجلس قدام بن بركة المتحدث ... يحكم نظارتيه ، وينزل حافة قبة الجوخ ، يشرب قهوته : رشفة ، رشفة ... كان ضابط امن .

اذ الملح القرميد في البيت الذي غادرته زمنا ، احس المخبرين على جبيني يتحسسون غضوني الاولى سيوعشة هدبي الاولى ، ورائحة الشرايين الغربية .
اني احس بهم : اصابعهم تجس بريق عيني وهي تبحث عن مصادلة السجين

يتبادل والمغرب العربي الرسائل ، كل الطوايح صورته ، والخطوط التي يدرس الخبراء اندفاعاتها خطه . كان يحفظ تاريخ مولده ... قال للمخبر اليوم : هل تنمشي معا ؟ مر بالطبعة :

في الصباح تاخر عن شرب قهوته ، ظلت الفرقة الجانبية مغمورة بالضياء الى الفجر ... هل كان يقرأ ؟ باريس تفتحها شاحنات الاقاليم بالجزر المتوردة والخضرة المشبعة .

جاءه رجل يرتدي معطفا مطريا ... تلفت واجتاز باب المغفرة ... ماذا يخبر هذا الذي جاءه امس أيضا ؟ اني المعطف الخبز والجبن والبرتقالة ؟ ما هو ذا خارج خارج خارج ...

بين باب العمارة والسلم المتطامن ادركته ... حين ابصرت عينيه قرزت ان اتبعه .

تدين شاحبة ، راي قسمائك الفقراء في صيف الرباط اكننت خلف السور زهره ؟

اني معدت يدي اليك ... لست وجهك كنت ساخنة ... فلم اقبل سواك ، ولم اعانق ها هم جياح المغرب العربي ، مثلي ،

يتحنون بهاءه السري سره ها هم جياح المغرب العربي ينتشرون باسمك ينتشرون على اسمك المنوع اوراق الخلايا والصدائق هل تنهين معي ؟

اني احس بهم : على ورق الكتابة يعركون اوائل البصمات ، يفتصبون ازهار الحبيبه
اني احس بهم : يجالسنني على كرسي مكتبي فتى منهم ويشرح لي شؤوني

حاولت ان اتصد الباب الوحيد
غمرت مفتاحي
وضعت جهاز اذار بذاكرتي
هجرت موائد البارات
حصنت النوافذ بالنحاس
واذ هدت دخلت مكتبي :

هناك عشرة يتناولون شراهم فيها .

في المطار تلبثت بين رجال الجمارك ... كنت اراقب كل الذين يجيئون من ساحل المتوسط ، ايقظني رجل من رتبة تلك الوجوه التي تقطع العبر الضيق الصدر ، شاخصة نحو ما تحمل العربات ، وما تفعل الغيتيات ، وما تشتريه المغاور .

كان شخصا طويلا ، طويل الخطى ، ربما كان في الجيش حتى عشية امس ... اجترأت فسألته عن مناخ الرباط ، واكفته لم يعبرني انتباهها ، ولم يلتفت لي ... ترى ... هل تعمد اخفاء عينيه وسط الحقبة ، وهو يحاول ان ينتهي مسرعا من قناع المسافر ؟

عدت ثانية : مشرب للاجئين المغاربة . ارتخت حين وجدت الذي كان في الجيش حتى عشية امس ... فها هو ذا هادي وحده ، يشرب الشاي - هل كنت شخصا ذكيا ؟ - لقد دخل الشخص ذو المعطف المطري .. تلفت ، ثم استدار الى حيث يجلس ذلك . تركتهما واتجهت الى حيث يسكن بن بركة التاخر . احسنت اني بنضتي افامر .

انقلبت يلبس خف واقصة تراوذي ... ترى المدن الغربية قاعة للرقص ضيقة .
لماذا تنظرين الي هادئة ؟
انتظرتين خطواتي الاخره ؟

انا لا احبذ الرقص ...
احمل في الشوارع رايتي ، لم اخفها يوما ،
وربما انتهيت الي عن خطا ،
وربما اخطت في بدايات المسره

لكن اغنية الشوارع لم تضق يوما كما ضاقت هنا ...
ها انت تقترين مني
تلصقين باضلعي كفا من الفولاذ مرهفة ...
رايت دمي يث على ثيابك ...
وهو يصبح قاعة الرقص الصفيره

عند باب العمارة هاجمني رجل كنت شاهدت عينيه ، يوم المطار ... يد ترتدي خنجرا مغربيا تهاجمني ... لم يكن لي سوى الصمت ... خنجره المغربي يشق الطريق الى صخر حنجرتي .. وهو يجلبني في مؤخر سيارة داكنة

ليلتين تركت وحيدا ... اضم الظلام على جسمي المشنج ، فكرت : في اي ضاحية كنت ملقى ؟ لقد غادروني ولم يتروكا غير ميسمهم في ضلوعي وبقيا سجانهم ... ان منزل بن بركة الان منكششف ... تلمس السريح والشرباء نوافذه الساكنه .

تعاملت ... حاولت ان اباغ الباب ... افتحه ... يفتح الباب : كان شميم الصنوبر في رثتي يودا ، والضياء السذي يهر العين يمد عبر الحقول كما كان دوما ... جلست على عتبة البيت منكسرا ذابلا ... حاملا وجه بن بركة المتارجح بين الحزام الشيوعي والبيت والقهوة الساخنه .

فتحت عيني اللتين تحوم الاسماء حولهما ...
رايت العالم السفلي ماذا
مترقفا بين انكسار الضوء والحجر القديم ...
يبدى موقنتان خلفي
دارت الاسماء حولي
كنت الخ في التماعتها السماوا

واحس بالامواه تعلمني وراء « السين » ...
اني اعبر البحر المحيط ...
يبدى موقنتان خلفي
والرباط قريبة :

اسوارها الرميلة الصفراء تدنو وهي تهبط
تسم تدنو وهي تهبط
تسم تدنو وهي تهبط
كانت الاسوار اشجارا واطفالا ومساء
سعدني يوسف
بغداد ١٩٧٣-٢٥